

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 16 (العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

التراث الأسطوري و الممارسات الطقوسية في الصحراء

- مقارنة أنثروبولوجية -

Legendary heritage and ritual practices in the desert
- anthropological approach -

د/ فاطمة صغير²

د/فتيحة بلحاجي¹

D/ Sghir Fatima

D/ Fatiha Belhadji

المركز الجامعي بمغنية Maghniya University Center

¹ fatihabelhadji13@gmail.com

المركز الجامعي بمغنية Maghniya University Center

² diden.bb@hotmail.fr

تاريخ القبول: 2020/03/09

تاريخ الارسال: 2020/02/22

ملخص:

يروم هذا المقال تقفي أثر البعد الأسطوري للموجودات في الصحراء ، التي تعد منبعاً مفعماً بالتراث الشعبي و فضاء للتنوع الثقافي ، فالأسطورة كونها شكل من أشكال التعبير ترجمت لذلك العالم الخفي من الماورائيات الذي ينبعث من رحم التاريخ ، و جسدت عوالم المقدس الذي يتصل بالانسان و الكون و الموجودات بنزعة غرائبية عجيبة، فصنفت كظاهرة أنثروبولوجية بامتياز ، و عليه فقد حاولنا مقارنة التراث الأسطوري أنثروبولوجيا حيث بنينا العمل على محطات جزئية جاءت كالتالي: وقفنا عند استجلاء البعد الأنثروبولوجي للأسطورة، ثم تطرقنا إلى قداسة الأولياء الصالحين في المجتمع الصحراوي، مروراً بجذلية التسمية و الاصطلاح بين الولي و المرباط، وصولاً إلى ثنائية زيارة المقابر و الطقوس الممارسة ، ليصل بنا المقام إلى نماذج من أسطورة الصحراء التي شكلت الوثيقة الأنثروبولوجية في النص الروائي العربي. كلمات مفتاحية : أسطورة الصحراء ، التراث الشعبي، الممارسات الطقوسية ، مقارنة أنثروبولوجية.

¹ - المؤلف المرسل: د/فتيحة بلحاجي ، fatihabelhadji13@gmail.com

Abstract:

This article aims to trace the legendary dimension of the assets in the desert, which is a source filled with folklore and a space for cultural diversity, as the myth being a form of expression translated for that hidden world of metaphysics that emanates from the womb of history, and embodied the holy worlds that relate to man and the universe And the foundations with a strange strange tendency, they were classified as an anthropological phenomenon with distinction, and therefore I tried to approach the mythical heritage of anthropology, where the work was built on partial stations that came as follows: With the desert, through the label and Bjdlah terminology between the guardian and cleats, leading to a bilateral visit cemeteries and ritual practice, bringing us all to models of the myth of the desert, which formed a document Anthropological in the Arab narrative text.

Key words: Desert Legend ; Folklore ; Ritual Practices ; Anthropological Approach.

مقدمة:

تعتبر الصحراء رافد من روافد الثقافة الشعبية ؛ فهي تشكل فضاء أسطوريا بخلوتها و سكوتها الأبدي و قداسة موجوداتها ، لدرجة أن نسبة غير هينة من سكان الصحراء يربطون مصيرهم أشد الارتباط بالطقوس الأسطورية كاستعمال التعاويذ و التتممة و الاعتقادات ..، فقد فرضت الأسطورة نفسها كشكل من أشكال التعبير الفني الشعبي الشفاهي وسط زخم المعتقدات و العادات و الطقوس الاحتفالية و الفنون الأدائية ، فكان لها حضورا قويا و توظيفاً أقوى ضمن الثقافة الصحراوية ، لكونها تتسم بالقداسة و العجائية و الغرائبية وتؤدي عدة وظائف كالمعرفة و التعليل و التفسير و من جهة أخرى، نلفاها بمثابة معتقد ديني لمجتمع من المجتمعات ، و امتدادا لفكرهم الديني الناجم عن طقوس معينة ، لقد أمسى التراث الأسطوري معيناً لا ينضب عند الأنثروبولوجيين كونه يجسد صورة الإنسان و ثقافته و دينه و مقدساته... ، أما الرواة فقد وجدوا في عالمها مقاصدهم فاحتوتها مرواياتهم وفق خيال في يرتقي بالمتلقي نحو لذة قراءة النص السردي و متعة تأويله و جمالية تلقيه ، و خير دليل على ذلك ابراهيم الكوني الذي أقر بأن الأسطورة الصحراوية هي التي تخلقه و ليس العكس وهي شرط الحياة ، فمثلما كانت الأسطورة مصدراً لديانات اليونانيين القديمة، و جعلت ملحمة جلجامش تنبئ بديانات قدماء السومريين فقد بات خلود بعض المعتقدات و العادات و

التقاليد مرهون بالأسطورة التي تمكنت من تجسيد استطلاات البعد الميثولوجي في المجتمع الصحراوي ، بوصفها وسيلة تعبير تدلّ على خصب المخيلة البشرية وتراثها، و اخترنا كمادة لبحثنا ثلة من الأساطير المفعمة بالآرث الثقافي و الطقوسي في الجنوب الغربي الصحراوي الجزائري نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: أسطورة هدارى ، أسطورة الإخوة السبع "اسريسر" (تندوف). أسطورة تلبالة ، اسطورة سبعة رجال ،أسطورة مقبرة "الزواية" العتيقة ، أسطورة مجمع الصالحين أو شجرة "الطلح"،أسطورة البسطامي ، أسطورة موغل و جبل "قروز"(بشار).....، نروم تصوير الصحراء من خلال الأساطير المقدسة و المشكلة لمينع موروثها الشعبي و استجلاء بعدها الأنثروبولوجي.

أولا : الأسطورة و البعد الانثروبولوجي :

تعد الأسطورة من بين أبرز المجالات التي تقوم عليها الأنثروبولوجيا المعاصرة ، كونها تترجم ذلك العالم الخفي من الماورائيات الذي ينبعث من رحم التاريخ ، و يجسد عوالم المقدس الذي يتصل بالانسان و الكون و الموجودات ، يكون فحواها "أكثر صدقا و حقيقة بالنسبة للمؤمن من مضامين الروايات التاريخية ، التي قد يشكك فيها و يعطي لنفسه الحق في تصديقها أو تكذيبها ، و لكن الشك لا يتطرق إلى نفسه إذا تعلق الأمر بالأسطورة ، فهي لا تحكي ما جرى في الماضي و انتهى ، بل عن أمر ماثل لا يتحول إلى ماض ، ففعل الخلق الذي تم في الأزمنة المقدسة ، يتجدد كل عام و يجدد معه الكون و حياة الانسان ، و إله الخصب الذي قتل ثم بعث الحياة موجود على الدوام في دورة الطبيعة و تتابع الفصول." (فراس السواح، 1997، ص13)

يشير مصطلح الأسطورة إلى المنابت الأولى لظاهرة من الظواهر الأنثروبولوجية ، التي تتأسس على مجموعة من النظم و الاعتقادات و الأسس المميزة لمجتمع من المجتمعات ، لتكون بمثابة الأداة الاستكشافية لتحسين التاريخ ، و استكناه الأصول التي انبثقت عنها الظاهرة، فهي " نظام شائك من المعتقدات و الممارسات و الطقوس ، و هي الايمان بما اعتقده الانسان بأنه مقدس ، هذا ما جعلها تحظى بسلطة عظيمة في عقل الانسان الصحراوي و تفكيره ؛ فهي تثير جوانب النفس الانسانية ، فالمجتمع الذي يفقد أساطيره بدائيا كان أم متحضرا يعاني كارثة أخلاقية تعادل فقدان الانسان لروحه ، فالانسان الصحراوي يعتبر الأسطورة إحدى القيم المثلى و النواميس العليا التي تبقى سندا له ، و مدونة في لوح محفوظ خوفا منها و عليها. (الاسطورة ..توثيق حضاري، 2009 ، ص24/ نقلنا عن ابتسام لهلاي، 2018، ص 99).

إن الحديث عن الأسطورة ، و إنزالها منزلة الظاهرة الأنثروبولوجية الأصيلة ، يسوقنا نحو الحديث عن تحديد منهج دراستها، فلا بد من عمل ميداني تحضير ي يقوم مقام النظر في أصول (جينالوجيا) تشكل بنيتها و كينونتها و فحواها ؛ إلى غاية استكمال روافدها وكفايتها المنهجية ، وبالتالي تشكيل العمق المعرفي و المنهجي للظاهرة المدروسة ، " و إذا كان لزاما علينا التمييز لأسباب ديداكتيكية بين المناهج التي تدرس الأسطورة و إن اجتمعت حول الموضوع، فإنها تختلف من حيث الطريقة أو المنهج؛ " فالمنهجية "الميثونقدية" التي تنطلق من النص ،أو المنهجيات "الميثا-تحليلية" Mythanalyses " تلك التي تجعل "المسيرة الأنثروبولوجية" تمضي من السياقات الاجتماعية، فإن كلمة "أسطورة" التي هي أصل هذين المفهومين المنهجين تبين لنا بوضوح على أننا نشتغل على المادة الأولية نفسها *materia prima* ، و لا يوجد بالطبع، أي فرق بين الأسطورة المنتشرة و غير المكتوبة، و أسطورة الآداب الشفوية "أورا ليتور" Oralitures، كما يقول بعض الإثنولوجيين". (PAGÉAUX, Daniel-، 1994, p.9).

(Henri)

تشكل الصحراء الجزائرية عالما ثقافيا و زادا أنثروبولوجيا هاما ، وجدت فيه ضالتها ، و إن كانت الأنثروبولوجيا علم يتوغل في دراسة الانسان و سلوكه و ثقافته و حفريات و نظام بيئته، فهو أيضا علم يهتم بدراسة تاريخ الأديان و الأساطير و الحكايات المخزنة في مخيال الفرد عبر أزمنة متعاقبة، كما يروم الكشف عن الظاهرة الاجتماعية و علاقتها بالانسان في ظل تغيرات المجتمع و تزاوج الثقافات ، و للصحراء خصائص طبيعية و بيئية مختلفة عن باقي المناطق الشمالية ، و بالتالي يختلف النمط المعيشي لسكانها مما يؤدي إلى اختلاف طقوسه و ثقافته و أساطيره ، فيكون الحضور الأنثروبولوجي ثريا و فريدا من نوعه، إن طبيعة البحث في عوالم الصحراء ترتبط ارتباطا وثيقا لا ينفصم عن الممارسة التي تتوخى الالتزام بالحقل الأنثروبولوجي ، فكان لزاما علينا أن نقف عند العلاقة الكامنة بين الأسطورة و الانسان ، و التي وصفها مرسيا إلياد بعلاقة القداسة في كتابه البحث عن التاريخ و المعنى، إذ يقول: "تعتبر الميثولوجيا بمثابة التاريخ المقدس للعشيرة المعنية ، و أنها تفسر الواقع بأسره و تبرر تناقضاته ناهيك أنها تتم كذلك عن تراتب في تعاقب الأحداث الخرافية التي ترويها ، و بصورة عامة يمكننا القول إن كل أسطورة تروي كيف أن شيئا من الأشياء قد وجد سبيله إلى الوجود : من العالم و الانسان إلى هذا النوع الحيواني أو ذاك ، أو تلك المؤسسة أو تلك ..."

(مرسيا إلياد ، 2007، ص166).

يدلي كلود ليفي شتراوس بدلوه في مجال دراسة و تحليل النص الأسطوري أنثروبولوجيا ، فيقول : "إن تحليل الأسطورة يتجاوز تحليل مسمياتها أو مضمونها ، و إنه يركز على الكشف عن العلاقات التي توحد بين كل الأساطير ، و لقد أصبحت هذه العلاقات موضوعات أساسية في تحليله البنيوي، الذي استهدف الكشف عن الأبنية الموحدة لهذه الأساطير ، بالكيفية التي يرى بها أن هذه الأبنية تتجلى - خلال عملية تحليل الأسطورة- بالكيفية التي ينبثق بها فكر اللاوعي في الوعي خلال عملية التحليل النفسي ، و لذلك يغدو الكشف عن هذه الأبنية نوعا من أنواع التحليل النفسي " (أديث كريزويل ،1993، ص 146) ، انطلاقا من رأي ليفي شتراوس نستنتج أن الأسطورة الصحراوية تكشف عن جانب مهم في حياة الفرد الصحراوي ، يتجلى في استجلاء عوالم التحليل النفسي الذي يمكّننا من التوغل في أعماق المجتمع الصحراوي ، و الوصول إلى حدود تكامل العلاقات التي تتشكل على إثرها بنية الأسطورة ، و هذا ما يحيلنا نحو خصوصيته.

ثانيا -أسطورة هدارى : قداسة الأولياء:

جاء في قاموس الأساطير الجزائرية أن "هدارى من أبرز الشخصيات التي لعبت دورا مهما في إثراء الثقافة الشعبية والدينية للمجتمع التندوفي، هي شخصية حقيقية و واقعية، و لكن أطلق الخيال عنانه لينسج أسطورة في غاية الغرابة و العجب، فضلا عما تتمتع به الشخصية من الإعتراف بالصلاح و التقوى و الورع من طرف الخاص و العام.. إنه ولي من أولياء الله الصالحين الكثيرين، الذين تنتشر أضرحتهم عبر الولاية، إلا أن شخصية هدارى الأسطورية انفردت بصفات خاصة قلما نجدها في غيرها، ينتسب إلى أهل "إيديشلي" حسب الشيخ الغزواني، صهر هدارى والذي عايشه فترة من الزمن، و حسب جمعية "فنفة" الثقافية فإن هدارى من "السواعد" أي ينتمي إلى قبيلة "ساعد" إحدى قبائل الرقيبات" (عبد الرحمان بوزيدة، 159 -<https://pnr.crasc.dz/index.php/fr/21>).

تعتبر أسطورة هدارى من الأساطير المقدسة التي تمثل تاريخ و ثقافة الشعب الصحراوي ، كونها جزء من معتقداتهم و قوة سامية تتعالى عن العالم الدنيوي ، فقد أخذت قصته بعدا أسطوريا مذ أن كان صغيرا في يم الرضاعة ، و بالذات عندما اختفى أثره ، إثر زوبعة رملية عاتية فتكت بكل من كان في مخيم المهاجرين ، فهدارى كان رفقة والدته لما هاجرت شادة الرجال نحو أهلها ، فبمجرد أن فراقته هنيهة بغية جمع الخطب للتدفئة لم تجد له أثرا، فلما هدأت العاصفة بحثت عنه طويلا في فيافي الصحراء و شعابها و لم تجده ، فبقي

مصير هدارى عند أهله مجهولا منذ ذاك الزمن.. لكن تشاء الأقدار أن تلقي به العاصفة وسط سرب من النعام ليتعايش معهم، و الغريب في الأمر أنه كان يتغذى بامتصاص إبهامه الذي كان يتدفق لبنا ، مع مرور الوقت تأقلم مع هذا المجتمع الحيواني ، و أمست حياته لا تختلف عن حياة النعام في كل مظاهرها ، و ظل على هذا الحال حتى بلغ سن الثامنة عشر .

عثر عائلة هدارى عليه عن طريق أحد الصيادين البدو الذي تنبه لوجود أثر الانسان مع أثر النعام ، لكن لما عاد واجهته معضلة البكم ، فقد عاش في مجتمع حيواني لا يتكلم إلا أصواتا غريبة ، فاقتربت عجوز أن يلقوه في البئر ، و إذا أحس بالخوف سيطلب النجدة و بالفعل هذا ما حدث ، فحينما ألقوه في البئر صاح مستصرخا " يا الله" ، "يا الشيخ محمد معروف" و أتبعها ببعض التمتمة المبهمة .

أسطورة هدارى تشكل ظاهرة دينية متميزة في المجتمع الصحراوي ، إذ تصور الانسان من وجهة أنثروبولوجية بحتة ؛ تجلت في تصوير صورة المقدس و عوالم القوى الخارقة و الشعائر المعتقد بها و التي لا يكمن مسها، فهدارى - حسب المجتمع الصحراوي - يمثل الولي الصالح الذي يحتذى به ، إيمانا بقداسته و كراماته : " فهي تبرز سمة الطقوس و الشعائر الجماعية التي تخلص الناس من مخاوفهم ، و تؤمن باتصالهم بالعالم الآخر ، تدخل الوسطاء الأقوياء لأنهم يمثلون كل الجماعة ، الولاية هنا ذات منشأ و مسلك ديني .. "(بول كلافال ، بيروت ، 1990، ص14/13)، فللولي الصالح سلطة دينية في المجتمع الصحراوي يجعله محكوما بمقدسات و طقوس كثيرة ، ميز درمنغن بين نوعين من الأولياء : الأولياء الجيدون الذين يشكلون موضوع علم المقدسات ، و الصلحاء الشعبيون ذوو الصبغة الفلكلورية ، و كلاهما جدي بالدراسة الانثروبولوجية من أجل تحديد فكرة القاداسة بمختلف رتبته (Emile Dermenghne , 1954,p11,cité par Mendib Abdelghani, optic, p 38). فاستمرارية المقدس المتمظهر في الأسطورة يعني استمرارية المعتقدات و الممارسات الدينية المقدسة، ذكر قاموس الأساطير الجزائرية أوصاف هدارى " حسب الحكايا الشعبية و الناس الذين عرفوه، و كذلك الكرامات التي قيل أنها تحققت على يده ، كالتالي :

- انفراد بعض الصفات النبيلة و المكارم الخلقية، و خاصة النية الصادقة (عديم الحلية و المراوغة)، و الكرم.. يأخذ من هذا إذا أعطاه، و يعطي لذاك دون أن يسأله.
- القدرة على شفاء المرضى بمجرد لمسهم.
- سرعة الجري الفائقة، حتى إنه يوصف بالغزال في السرعة.

- له لحية بيضاء، و شعر أسود ناعم كثيف لم يصبه الشيب، يصل طوله إلى حد الركبة، و يكره أن يلمسه أحد.
- كان يحب العزلة، ولا أحد يستطيع مجالسته سوى زوجه.
- قدرته و تحمله أكل كل شيء.. حتى إنه كان يكسر الزجاج ويبتلعه دون أن يصيبه أذى.
- يقوم أحيانا بحركات غريبة شبيهة بالنعام.
- اشتهر بوجود ثقب في إصبعه الأيمن (الإبهام)، يخرج منه اللبن حين يحس بالعطش، و استمر ذلك رغم تقدم سنه.
- عندما تصيبه النوبة و يأخذه الحال يطلق أصواتا غير مفهومة أحيانا، و يردد هذه العبارات: يا الله.. يا شيخي يا ماء العينين" (عبد الرحمان بوزيدة :مصدر سابق) ، فالكرامات التي يتصف بها هدارى جعلته يمتطي صهوة الأسطورة ، وقصر قامته (حد الركبة) أيضا صنفه في خانة الأقزام العجيبة ، أما خاصية اللبن الذي يخرج من ثقب بإصبعه الأيمن فتسيطر على أسطورة قصته ، ضف إلى ذلك القدرة على شفاء المرضى باللمس .. كلها تجعل من قصته أسطورة بلا منازع ، بعد موته أمسى قبر هدارى مزارا للناس تبركا به و تيمنا بكراماته، فقد عاش حوالي قرنا و عشرين سنة ، توفي و دفن بتندوف ، بأعالي وادي قراير العرق ، في رأس وادي القنطار، فموت الولي و غياب الجسد في بعده الأنثروبولوجي لا يعني أبدا غياب روحه و نهاية سلطته الدينية ، بل تستمر في صورة أكثر فاعلية مما كانت عليه في حياته ، فهو يحلينا على تكثيف الاعتقاد و القداسة التي تتجسد في معمار الضريح ، فيتحول إلى مزار بغية التوسل و التبرك و إحياء الطقوس، فبالكرامة بلغ هدارى منزلة الصوفي في شكله الأسطوري و لامس سمة القداسة ، إذ ظهر في شكل قوة غيبية أسطورية خارقة متصلة بالله تترجم من خلال الكرامات و المعجزات ، و صفة الكرامة عند الأنثروبولوجي تعد أسطورة ، و عليه نلاحظ أن وظيفة الولي الصالح اجتماعيا في أسطورة هدارى تدخل في إطار اللاوعي الجمعي ، بمعنى أن المجتمع الصحراوي الذي يؤمن بوجوده و بكراماته يوكل أمره لهذا الأخير إيمانا بالمقدس و المعتقد الديني و قناعة بالقيم السائدة ، فالاعتقاد بالأولياء و التسليم بقدراتهم و كراماتهم ظاهرة دينية مقدسة تشكل نسق فكريا متكاملا في بنية المجتمع الصحراوي .
- ثالثا : أسطورة " سبعة رجال " تلبالة (الشيخ علي، السيد زكراوي بشير رئيس دائرة تلبالة، السيد شيخ بوزيد، رئيس بلدية تلبالة) : جدلية الولي / المرباط :

تلتقي الصحراء مع الأسطورة لتشكّل عالماً أنثروبولوجياً بامتياز ، و ذلك من خلال سمة القداسة و السلطة الدينية التي يشتهر بها الولي في المجتمع الصحراوي و يتخذها علم الأنثروبولوجيا معينا لا ينضب للدراسة و التحليل ، كما تعد ثقافة الصحراء أحد الأطر الرئيسية التي يمكننا من خلالها أن ندرس حضور أسطورة الاولياء في هذا العالم العريق ، فقد تختلف أسباب و طريقة وصول هؤلاء الاولياء إلى منطقة ما بأبعادها الأسطورية المقدسة في الوقت نفسه ، فيما أن تكون بمحض الصدفة أو بمشيئة ربانية و حضوة إلهية ، و أفضل نموذج لهذا الطرق أسطورة الرجال السبعة ؛ فمن هم هؤلاء الرجال السبعة ؟؟.

جاء في معجم الأساطير الجزائرية أن سبعة رجال هم " من أهم أساطير "تبلالة"، و هم عبارة عن سبعة أولياء صالحين متوفين، نقلوا إلى المقبرة العتيقة "بالزاوية"، و دفنوا في آن واحد و مكان واحد، وعندما كشف أمرهم، بنيت عليهم قبة، و صارت مزارا للناس من أجل التبرك والدعاء، و طلب الحماية و العون.. لما يعتقدون فيهم من التقوى، و لما يحظون من الإحترام و التقديس، حيث بني مسجد بمركز البلدية أطلق عليه "مسجد سبعة رجال" بل و لم تعد أسطورتهم حيصة "تبلالة" النائية، و لكن فاقت شهرتهم إلى كل الجنوب الغربي للجزائر.." (عبد الرحمان بوزيدة ، مصدر سابق).

عنهم يقول الشيخ بودواية :

رائي في عرق أقيدي انضيف لمباتات # ما نعرف لقدام و ين ايلوحويني

جبل بلباله معلم دار قيادات # سبعة رجال بهم تضمني

خش عرق الراوي حاجتك راها انقاضات # فوتوا على بوزغمرور و لقعة نسوات

لبي عباس وصل الزورة ل بوتيت مقاني # قول مقواني إل ابكيت أدبلت عياني

توجد أضرحة "سبعة رجال" في تبلالة لكن الأسطورة كقصّة فتعددت مصادرها، و اختلف في تحديد موطنها ، حيث تقر هذه الأسطورة أن هؤلاء الرجال الصالحون جاؤوا من مراكش المغربية نحو بشار "تبلالة" في القرن 12 هـ ، أما الشيخ امباركي أحمد بن محمد أحد المهتمين بالثقافة الشعبية لمنطقة تندوف فيقر بأن أضرحة السبعة رجال موجودة بتبلالة لكن الأسطورة فقط فتمتد إلى سبعة مدن و هي : مراكش ، توات ، تفياللت ، تبلالة ، تلمسان، تنبكتو، شنقيط..

أما فحوى الأسطورة فتتراوح بين أكثر من رواية ؛هناك من يقول بأن رجلا يدعى جبور كان يرعى أغنامه قرب المقبرة العتيقة ففوجئ بوجود سبعة قبور جديدة و تحرسها سبعة جمال، فعند كل قبر يرتع جمل ،

فاندهش الرجل مما رأى ، فقرر تتبع أثر الأقدام لكنه لم يعثر على شيء يشفي الغليل ، فاستشار رجل آخر في الأمر ، فظن أن القبور بها كنوز من المال ، فاقترح عليه أن يفتحها وقت صلاة الجمعة ، لما ينشغل الناس بالصلاة ، شريطة أن يتقاسم معه المال، ففعل جبور ،،، لكن وقع ما لم يكن في الحسبان ، فلما حفر القبر الأول وجد رجلا أسمر اللون ذو لحية بيضاء يحمل كتابا بين يديه و يقرأ فيه، فخاطبه قائلا : "يا جبور ، هؤلاء سبعة رجال و ليسوا مالا"، أما رواية الحاج امبارك زكراوي بعدما رآهم في المنام ،و قالوا له : "نحن سبعة رجال، الحمد لله كدارنا مال يا جبار، لو ما درناش مال كنا نكسروا لك ظهرك"، و بمجرد ما كلمه من كان في القبر، رد عليه التراب و فر يرتجف خوفا و فزعا، و أثناء عودته سقط مغشيا عليه في الطريق، ولما خرج المصلون من المسجد، و جدوه ملقى في قارعة الطريق، فأخذوه و عالجوه، فلما أفاق و استرد أنفاسه، قص عليهم تفاصيل القصة، فذهب الناس إلى القبور، فلما رأوها أخذوا معهم المواشي، تعبيرا على حسن استقبالهم و ضيافتهم هؤلاء الموتى الجدد الذين حلوا عليهم، و بعد إصلاح القبور و إعادة ترميمها، ذبحوا الذبائح وأطعموا الطعام و ذكروا الله، و في تلك الليلة وقف عليهم صاحب القبر و أقسم لهم يمينا: لو أنكم ما جعلتمونا مالا ما نجا منكم أحد، جزاء كشفكم لنا، نحن سبعة رجال منقولين من مراکش، و من هذه الحادثة عرف أهل المنطقة أنهم رجال صالحين و أصبحت أضرحتهم إحدى المزارات للتبرك و غيره.." (عبد الرحمان بوزيدة ، مصدر سابق).

و عن أسطورة العدد سبعة التي تتشابه لحد بعيد مع أسطورة مذاييح أحمد بن يوسف نجد رواية أخرى رواها الأستاذ فلاح علي المتخصص في الثقافة الشعبية لمنطقة العبادلة ، إذ يقول: "كانت زاوية "سيدي زكري" بالضواحي المجاورة لتبليالة، ثم اختصرت بـ "الزاوية"، يحكى أن مقدم الزاوية أراد اختبار صلاح الطلبة و المريدين، و معرفة مدى إيمانهم و تقواهم، فجمعهم في ساحة الزاوية، و صعد شرفة عالية و طلب منهم أن يصعد إليه من يدعي أنه قد وصل مرتبة فائقة من الزهد و الورع و التوكل.. على أن يذبحه، فنظر المريدون بعضهم إلى بعضهم، حتى إذا صعد أحدهم، اخذ المقدم شاة فذبحها بكيفية لا يراه أحد، فاعتقد المريدون لرؤيتهم الدم أنه قد ذبح المريد بالفعل، فعزم بعضهم على تجاوز التحدي، و في كل مرة يذبح المقدم الشاة، حتى بلغ العدد سبعة، و هنا توقف المريدون بعدما أطبق الخوف و الرعب عليهم، عندئذ أمر المقدم المريدين السبعة أن يظهروا للمريدين، فاعتقد جميعهم أن الشيخ المقدم قد أحياهم بعدما أماتهم. و هذه الرواية أشبه بأسطورة "مذاييح أحمد بن يوسف"، و التي نجدها منتشرة في عدة ولايات.." (عبد الرحمان بوزيدة ، مصدر

سابق.)، تتبنى هذه الأسطورة في بعدها الأنثروبولوجي عدة أساطير أخرى كوجود السبعة قبور الجديدة بين ليلة و ضحاها دون علم أهل المنطقة و هذا أعجب من العجب ،ثم حديث الرجل الصالح مع جبور و هو في القبر ، و هذا ما يجعلنا في دوامة : هل الرجل ميت أم حي ؟؟ هل الكرامات التي يمتاز بها هؤلاء الأولياء تبلغ هذا المصنف ؟؟ لدرجة أن الميت يستعيد الروح و الحياة و يخاطب من يفتح قبره ، و الأكثر غرائبية و عجائبية هو رد التراب عليه ،و وعيد الرجل الصالح لمن ظن أنهم مالا ثم الافصاح عن كراماتهم ..، أضف إلى ذلك ظن المريدين أن مقدم الزاوية هو من ذبح المريدون ثم أحياهم .. كل هذه الأحداث اللاعقلانية تستجلى البعد الأسطوري الخارق عند سكان الصحراء.

رابعا: أسطورة مجمع الصالحين أو شجرة "الطلح" ، ثنائية الزيارة و الطقوس:

يعد (R. Smith) أول علماء الأنثروبولوجيا الذين اجتهدوا في استجلاء العلاقة الكامنة بين الأسطورة و الطقوس، ففي معرض حديثه عن الدين بوصفه حقيقة اجتماعية ، أكد أسبقية الطقس على الأسطورة بدليل المكونات الاجتماعية ، فباتت الأساطير أداة لشرح الطقوس لأن هذه الأخيرة ليست ثابتة بل متحركة و متغيرة ، على عكس الطقوس التي تظل ثابتة و راسخة في المجتمع ، و هذا دليل على أنهما يكملان بعضهما حتى و إن اختلفت أسبقية الواحدة عن الأخرى ..، فمجمع الصالحين أو شجرة الطلح تعد أسطورة متداولة في المجتمع الصحراوي ، قد تختلف رواياتها من منطقة صحراوية إلى منطقة أخرى ، و قد تبقى راسخة و قد تتغير ملامح أسطورتها ، أما الزيارة فتعد طقسا من الطقوس الممارسة عند زيارة القبور التي كانت و لا تزال حاضرة عبر الزمن ، و ستبقى متجلية إذا ما حافظ عليها الأجيال.

من الأساطير التي تشتهر بها ولاية بشار أسطورة مقبرة الزاوية العتيقة ، المعروفة بقباها و قبورها ذات الزخارف ذات الطابع الاسلامي و التي اكتُشِفَ أنها تتجه للقبلة رغم قدمها و تجذرها في التاريخ الصحراوي ، و كذلك طول القبر الغير عادي ، مما فتح باب التعقيدات و المعتقدات و الطقوس ، فأخرج هذه المقبرة من كينونة الحقيقة و سرح بها نحو الغرابة و الأسطورة ، و إذا تحدثنا عن المقبرة العتيقة فحتمًا سنطلق العنان لاستحضار "مجمع الصالحين" و "شجرة الطلح" و "سيدي بورجة" و خمسة من أشجار النخيل التي تعتبر مزارا للناس للتبرك و نيل المطالب .

إذا وقفنا عند مصطلح المقبرة و ما يتعلق به نقول الزيارة التي تعد سلوكا طقوسيا في المجتمع الجزائري ، فحتمًا تصادفنا طقوس الزيارة الدينية و الدنيوية و التي تتجسد في "مجموعة من السلوكات و القواعد ، هي تصرفات

محددة تشبه قوالب تكرارية تتضمن افعالا و رموزا تدخل فيها عادة بعض الاشياء و الكلام المردد أحيانا من ماضي سحيق ، و يمكن تقسيمها إلى وسائل دفاع و التزام - حسب موس- ، و طقوس رقابية تتضمن المحظورات و الوصفات التي قد تكون سحرية بشكل أو بآخر ، و إلى طقوس تذكارية أو احتفالات تستند إلى الأساطير التي تعيد إحيائها أو تكرار تمثيلها و هي تجهد، من خلال التكرار و خلق نوع من استعادة زمن البدأ ، أو بالأحرى الخروج من نطاق مرور الزمن ، و هكذا تكون أولوية واحدة للعلاقات بين البشر و إطار المقدسات متمثلة في الأساطير و معاشة في الطقوس." (فيليب لاهورت- تولرا، جان- بيار فانييه ، 2004م، ص 177/178).

ينزل الناس من كل حذب و صوب على ضريح "سيدي بورجة" بغية التبرك، و للزيارة طقوسا خاصة يقوم بها سكان الصحراء و خاصة الجنوب الغربي ، حيث "يجتمعون كل ليلة الخميس و يومه، فيصلون المغرب والعشاء تحت شجرة الطلح، و الصبح و الظهر و العصر، تحت أشجار النخيل الخمس، يؤمهم سلطان البر و البحر "سيدي عبد القادر الجيلي"، و أما أهل تلبالة فيقصدون المكان نفس الموعد لتناولهم بركة الصالحين ، و مما يعتقد في الأشجار، أن ما من أحد ينتفع بثمارها أو يأخذ حطبها إلى بيته هلك و خربت داره، اللهم إلا للإنتفاع بها بعين المكان فقط، كما لم يلاحظ حيوانا أكل منها، و يعرف الطلح أنها شجرة بها شوك بارز، إلا أن شجرة الطلح بمجمع الصالحين ينعدم فيها شوك، و لم يلاحظ فيها إفرازات طبيعية (مادة "العلك" اللاصقة) ، و يقيم أهل المنطقة في مجمع الصالحين ما يسمونه "الموسم"، و هو عبارة عن حفل ديني يقام في شهر أفريل كل سنة، فينشدون المدائح، و يذبحون الذبائح والقربان، و يطعمون الطعام، و يتلون القرآن و الأذكار و الإبتهالات الدينية، إضافة إلى بعض الطقوس الأخرى، فيطوفون على الشجرة ثلاثا عكس عقارب الساعة، و يذبحون تحتها شاة و يقطعونها إربا إربا لتقدم للأطفال دون غيرهم.." (عبد الرحمان بوزيدة ، مصدر سابق.)، إن الوظيفة الأولية للطقس على حد قول رونييه باستيد هي "وظيفة الاسترجاع الجماعي المستذكر لأصول الاسطورة و الدين" (R.Bastide ; 1970, p69) و عليه تعد الأساطير طريقة لوصف أنواع معينة من السلوك البشري، و يمكن أن يفهم الفعل الطقوسي والمعتقد على حد سواء على أنهما صور رمزية تكشف عن النظام الاجتماعي. وهذا ممكن لأن الطقوس في سياقاتها الثقافية هي دائما أنماط رموز، ولها نفس بناء نمط آخر من الرموز، التي تتألف من العبارات ومصطلحات فنية يستنبطها الأنثروبولوجي من أجل تفسيرها، ويتم المصادقة عليه اجتماعيا، اذ هي نسق

لطقس ديني خاص بالعلاقات بين الأفراد والجماعات، ورغم أن هذا النسق غير معترف بها عمليا دائما ، فإنه يجب تذكير أفراد المجتمع بالبنية الأساسية التي توفر الإطار لجميع الأنشطة الاجتماعية". (ياس خضر عباس العباسي ، 1434هـ - 2013م، ص 20).

رابعا: أسطورة الصحراء وثيقة أنثروبولوجية في النص الروائي:

هذا بالنسبة للحضور الأسطوري في المجتمع الصحراوي ، أما إذا انتقلنا إلى ترجمته و تجسيده في النصوص السردية فقد لا يسعنا الحديث في هذا المقام عن التأثير الكبير بالأسطورة التي يستجلي الراوي من خلالها ثقافة مجتمعه و يصور رموزه المقدسة التي تروم الكشف عن التراث الأسطوري للمنطقة ، لذلك نجدها تفرض نفسها كجنس أدبي وسط زخم الانفتاحات النصية على بعضها البعض ، فكان لها حضورا قويا و توظيفا أقوى ضمن النص السردى ، لكونها تنسم بالقداسة و العجائية و الغرائبية . وتؤدي عدة وظائف كالمعرفة و التعليل و التفسير و من جهة أخرى، نلفاها بمثابة معتقد ديني لمجتمع من المجتمعات و امتداد فكرهم الديني الناجم عن طقوس معينة ، ضف إلى ذلك وظيفة التأثير في المتلقي، "فمن أجل تحقيق أي فهم لأساطير ثقافة معينة أو مجتمع ، فمن الضروري أن نأخذ لغوية أو مستهل السرد باعتبار الأساطير في المقام الأول سرديات وثقافة محددة بطبيعة الحال، وإلى توظيف جميع عناصر تحليل السرديات إلى تحليل الأساطير ، هذا النوع من المنهجية خضع لنقاشات وانتقادات من الأنثروبولوجي السويدي (G. Aijmer) الذي يعد الأسطورة كالطقوس المنقولة أو المحولة إلى مجال اللفظة الحياتية، حيث قد تتطور إلى مزيد من الخيال والدراما (G. Aijmer؛ 1987) .

لقد أمسى توظيف التراث الأسطوري معينا لابنضب عند الرواة العرب لأنهم وجدوا في عالمها مقاصدهم فاحتوتها مسردياتهم وفق خيال فني يرتقي بالمتلقي نحو لذة قراءة النص السردى و متعة تأويله و جمالية تلقيه ، باختصار ترجمت الأسطورة التجربة الابداعية للراوي، كما تمثل استطلاات للسرد الميثولوجي، بوصفها وسيلة تعبير تدلّ على خصب المخيلة البشرية وتراثها، " فمعالجة النص الأدبي في هذا الإطار هي في حد ذاتها "تفكير حول مسألة التمثل la représentation، ومنها على الأخص التمثل الرمزي، أي ذلك الإطار الأنثروبولوجي الواسع الذي يدعو لوضع النصوص الأدبية في مجموع الانتاجات التي يحاول الإنسان بواسطتها معرفة العالم، و الآخرين، و بالتالي معرفة ذاته أيضا" .

(REICHLER, Claude , 1989 ; P82)

من الروايات المفعمة باستحضار الأسطورة في ثنايا عالم السرد الروائي، نذكر: رواية الطاهر وطار "الحوات والقصر" التي تجلّى فيها البعد الأسطوري من خلال شخصية "علي الحوات" المستمدة من أسطورة سيزيف و بروميثيوس و أوزوريس المتميزة بصفاتها الخارقة، يمتاز البطل علي بقوة خارقة و عجيبة، و "نوار اللوز" لواسيني لعرج، "صوت الكهف" لعبد المالك مرتاض، و "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، هذا الولي الذي يشبه في طريقة بحثه وما لاقاه من أهوال في حروبه بأبطال الأساطير مثل أوديسيوس ملك إيثاكا والبطل الأسطوري لأوديسية "هوميروس" الذي ترك بلده ليكون قائدا في حرب طروادة وهو صاحب فكرة الحصان وما واجهه من أهوال (خيرة جديد، 2018/2017، ص 43/42)، و "الجازية و الدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة، و "نزيف الحجر" لابراهيم الكوني، و المبلود شغوموم ب "سرقسطة" و خميل المضاجع"، و رواية "مدينة المياه المعلقة" لمحمد مثنى... وغيرها.

"يمكن اعتبار تحوّل الأسطورة الإيتنو-دينية إلى الأسطورة الأدبية كسيرورة مضيئة لعملية الانتقال من المقدس إلى المدنس. "و إذا كان الأدب بخاصة و الفنون على العموم مخزنا أساسيا لحفظ الأساطير، فإن الأسطورة "الأدبية" تضيف إلى الأسطورة البدائية دلالات جديدة"

(PAGEAUX, Daniel-Henri, 1994, p96)، فالكوني مثلا طوع نصوصه السردية و منهجها وفق قالب فني خاص به، مؤسسا حجر رواياته على أسطورة الصحراء و علاقتها بالانسان و القدر و الموت و الكون و الطقوس المقدسة عند الطوارق، فنجدّه يزواج في سرده لأحداث رواية "نزيف الحجر" بين الأسطوري و الواقعي، كونه يتحدث عن فترة زمنية عصبية عاشها الشعب الليبي تحت وطأة الاستعمار الإيطالي، فجاء الغزو مستفحلا و موغلا في صحراء ليبيا، و بالتالي انتهاك حرمتها و القضاء على ثروتها الحيوانية، دارت أحداثها في صحراء قبيلة الطوارق مسقط رأس الكوني، و الصحراء هي ملهمة الكوني و بها حاول تأسيس الأسطورة حقا لأنها استعارة لهذا الوجود، عن الصحراء يفصح الكوني: " بالصحراء حاولت تأسيس تاريخ الأسطورة حقا، وبالتاريخ أحاول قلب الأمر بتأسيس أسطورة التاريخ، وهو طريق ثالث اختلف عن الطريق الذي ألفناه في تاريخ الآداب حيث يتم تحويل الواقع إلى أسطورة (على طريقة كافكا أو ماركيز)، أو يتم تحويل الأسطورة إلى واقع على طريقة توماس مان" (المرجع نفسه).

إن نصوص الكوني تتناص مع أساطير مختلفة فرعونية، فينيقية، يونانية وعربية، إذ أن الصحراء وحدها تشكل فضاء أسطوريا بخلوتها و سكوتها الأبدي، وربطها بأخلاق الانسان الصحراوي الطارقي وتأملاته

الوجودية بعيدا عن المدنية وضوضائها التي تعرض قدسية هذا المكان للضياع والاندثار، ففي رواياته "نزيف الحجر والتبر وناقة الله" أكد على طبيعة العلاقة المتينة بين الإنسان والحيوان حتى أنه في الثانية والثالثة جعل أبطالها من الحيوان "كالجمل" وربطها بشكل مدهش وعجيب مع الصحراء تلك العلاقة التي لا يمكن الفصل فيها فإذا ذكر الجمل ذكرت معه الصحراء والعيش بعيدا عنها موت واغتراب، وذلك كان موضوع رواية "ناقة الله"، (خيرة جديد، ص45) فعندما تطالع مسرديات الكوني تنبهر بتواشع أحداث قصصها العجيبة بين "حقيقة وسحر، عادي وخارق وأبطاله الكائنات سائرهما الإنس والجن والطير والدواب والزهر والشجر، والماء والحجر والريح والتراب، كلّ حي فيه عاقل قائل فاعل، هي الخليقة بأسرها على ركحة تتحرك يجعل الأسطورة تتألق تحت خيوط شمس" (ابراهيم الكوني، 2008، ص 08).

و عن أسطورة و تقديس الحيوان نجد "الودان" عند الكوني الذي بات حيوانا مقدسا يجمع بين واقعية حضوره المادي و أسطورية معانيه عند أهل الصحراء ، لقد توسع الكوني في معاني استمرار الودان و رفعه إلى مستوى الرمز الأسطوري؛ (نوتو هارا ، نوبواكي ، 2003، ص90) ، و عن حضور الودان في رواية نزيف الحجر يقول الكوني: "من يقرأ "نزيف الحجر" لابد أن يتذكر نظرية فرويد عن عقائد الأمم الأهلية إزاء الحيوان الطوطم الذي يحتل دور السلف الأول في ناموس القبيلة، وتقديمه كقربان استعادة لجريمة قتل الأب، والبكاء عليه تالياً ضرب من تكفير عن هذه الخطيئة- ولكن نموذج الودان هنا ليس مستعاراً من علم النفس الفرويدي، بل من ظواهر انثروبولوجيا ، فهو محاولة للتعبير عن وحدة الكائنات في هذا الوجود- والرواية تحذير مبكر لما يمكن أن يحل بالعالم إذا استمر في عمائه وفي استهائته بوحدة هذه الكائنات، وهي صرخة إنذار..." (سلمان كاصد، 2008م)، فالأساطير و الرموز التي استحضرها الكوني في نصه مكنته من تأسيس خطاب روائي جديد ، فكانت الأسطورة المفتاح الذي من خلاله تفتح مغاليق التأويلات و المضمرة النصية في الرواية ، و بتعبير آخر: لقد فتحت رؤية جديدة على التاريخ و المجتمع الصحراوي فجسدت الوثيقة الانثروبولوجية للمنطقة.

خلاصة القول:

نخلص إلى أن التراث الأسطوري في المجتمع الجزائري ككل و الصحراوي على وجه الخصوص ، يعد ثقافة دينية و سمة اعتقادية راسخة و مهيمنة على سلوك الفرد ، تداخلت فيه النصوص الأسطورية مع الأفعال الطقوسية ، حيث سيطرت أفكارها على الأفراد و هيمنت على ثقافتهم، فكانت الاسطورة وثيقة

أنثروبولوجية للمجتمع الصحراوي، فروح الولي التي تتجلى في البركات و الكرامات تترجم الجانب الروحي المقدس داخل المجتمع الصحراوي و تعكس الموروث الثقافي المؤسّس ، و خير دليل على ذلك هو التقيد بما تملّيه الأساطير،فالتبرك بالأضرحة و زيارة الأولياء باتت تشكل فضاء لتفريغ الممارسات و الاعتقادات الدينية المبالغ فيها ، و استمرارية للتاريخ و التراث الأسطوري.

المصادر و المراجع :

- (1) -إبتسام لهلاي ، 15 جوان 2018 ، مرجعية الموروث الشعبي الطارقي / الصحراوي في رواية المجوس لابراهيم الكزني -دراسة في الفضاء الاسطوري و الخرافة الشعبية ،جامعة بسكرة ، مقال نشر بمجلة علوم اللغة العربية و آدابها ، العدد 14 ، الجزء الثاني .
 - (2) -ابراهيم الكوني ، 2008،من أساطير الصحراء ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، د ط.
 - (3) -أديث كريزويل ، 1993،عصر البنيوية ، تر: جابر عصفور ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة.
 - (4) -الاسطورة ..توثيق حضاري ، 2009 قسم الدراسات و البحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية ، دار كيوان للطباعة و النشر و التوزيع ، ط1، دمشق ، سوريا.
 - (5) -الشيخ علي، السيد زكراوي بشير رئيس دائرة تبليالة، السيد شيخ بوزيد، رئيس بلدية تبليالة.
 - (6) -بول كلافال ، 1990، المكان و السلطة ، تر : عبد الامير شمس الدين ، بيروت.
 - (7) -خيرة جديد ، 2018/2017،العجائبي في الرواية المغاربية المعاصرة -روايت الميلويد شغوم أنموذجا " أطروحة دكتوراه في الادب العربي ، كلية الاداب و اللغات و الفنون ، قسم اللغة العربية و ادابها . جامعة جيلالي اليابس -سيدي بلعباس -الجزائر .
 - (8) -سلمان كاصد ، نشر بتاريخ 6 مارس 2008 ابراهيم الكوني ؛ أبحث عن الاسطورة لكي تخلقني ، حوار مع ابراهيم الكوني ، صحيفة الاتحاد.
- <https://www.alittihad.ae/article/10700/2008>
- (9) -عبد الرحمان بوزيدة :قاموس الأساطير الجزائرية / 159، المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية ، البرنامج الوطني للبحث ؛ السكان و المجتمع ، منشورات كراس -
- <https://pnr.crasc.dz/index.php/fr/21>

مجلة أنثروبولوجية الأوبان (الجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

- (10)-فراس السواح، 1997، الاسطورة و المعنى ، دراسات في الميثولوجيا و الديانات المشرقية ، منشورات دار علاء الدين ، دمشق، ط1.
- (11)-فيليب لابورت- تولرا، جان- بيار فانييه : اثنولوجية و انثروبولوجية، تر : مصباح عبد الصمد ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، ط1، 2004م.
- (12)-مرسيا إلياد ، 2007، البحث عن التاريخ و المعنى في الدين : تر : سعود المولى ، المنظمة العربية للترجمة ، ط1، لبنان.
- (13)-نوتو هارا ، نوبواكي ، 2003، العرب وجهة نظر يابانية ، دار الجمل ، ط1.
- (14)-ياس خضر عباس العباسي، 1434هـ -2013م ، توجهات دراسة الاسطورة النظرية في حقل الانثروبولوجيا الثقافية ، الجامعة المستنصرية ، كلية الآداب ، قسم الأنثروبولوجيا التطبيقية.
- 15)-Emile Dermenghne le culte des saints dans l'islam maghrebin ,Gallimard , 1954,paris,p11,cité par Mendib Abdelghani, optic.
- 16)-PAGEAUX, Daniel-Henri, 1994,Littérature générale et comparée - Paris, Armand Collin.
- 17)-R.Bastide,1970 ,sociologie des mutations religieuses ,Ed,PUF , paris.
- 18)-REICHLER, Claude, 1989, La littérature comme interprétation symbolique (in) l'interprétation des textes (collectif) , Paris, Ed. De Minuit.